ولما اضطرمت الحرب الأهلية الأسبانية ظهرت إيطاليا الفاشستية من وراء الثوار تشد أزرهم وتذكى أوار الحرب بجنودها وسلاحها ، وما زالت تمضى فى سياستها حتى اليوم تنفيذاً لمآرب ومشاريع استعمارية تبغى اجتناءها . ولما نظمت اليابان اعتداءها الأخير على الصين بادرت إيطاليا بإظهار عطفها وتأييدها لليابان المعتدية لأنها تسير فى نفس السياسة الاستعمارية التى تسير عليها

هذا هو ماضى إيطاليا ، وهذا هو حاضر الفاشستية الايطالية فى نقض العهود والمواثيق وتمزيق المجتمعات ، وفى ترقب الفرص غير المشروعة وتنظيم الاعتداءات الاستعمارية

والواقع أن الفاشستية الإيطالية لا تنكر جنوحها إلى هذه الخطط ، فهى تنادى علناً بأن الحق للقوة وحدها ، وتسخر من كل عهد أو ميثاق أو حق لا تؤيده القوة ، وهى تجرى على سياسة مكيافيلية خالصة تبرر لتحقيق الغاية كل الوسائل

فكيف تستطيع مصر بعد ذلك كله أن تثق بتأكيدات رومة الودية وتطمئن إليها ؟ إن التاريخ يعيد نفسه دائماً ، ومصر ترجو ألا تكون ميداناً للوثبة القادمة

ومصر لا يمكن أن تطمئن إلا لنفسها ومقدرتها على الدفاع عن كيانها ، وهى تشعر شعوراً صادقاً بالخطر الذى يلوح لها فى الأفق ؛ ولكن مصر تثق أيضاً فى مستقبلها وطالعها ، وتعتزم ألا تسمح لأحد بالاعتداء عليها . ومن حسن الطالع أنها تستطيع أن تعتمد فى مثل هذا الظرف على معاونة صديقتها وحليفتها العظيمة بريطانيا العظمى . ومن حسن الطالع أن مصلحة مصر ومصلحة بريطانيا تتفقان هنا وتمتزجان ؛ فالاعتداء على مصر يكون فى نفس الوقت اعتداء على ما تعتبره بريطانيا مركزاً حيوياً لمواصلاتها الإمبراطورية

على أن مصر يجب أن تعمل منذ الآن للاعتماد على نفسها قبل كل شىء ، فنحن فى عصر القوة لا فى عصر الحق ، ويجب أن تتذرع الأمم للذود عن حرياتها وكيانها بكل ما تدخر من القوى المادية والمعنوية ؛ وهذا ما ستفعله مصر بلا ريب

ثم إننا نؤمن من جهة أخرى بأن هذه النظم الطاغية والخطط الاستعمارية الباغية التى تصول اليوم فى ميدان القوة والعدوان سوف تبهار متى وقع الاصطدام الحقيق ؛ هذا إذا لم تسارع قبل ذلك إلى تمزيق نفسها بنفسها

(* * *)

مسكين

بين إنجليزى ولبوته

أثر العادة والتدريب فى الانسان والحيوان

كنت قد أبصرت في بعض الصحف صورة شبل مع إنجليزى وطلَّتُه [1] أو لَبُوَته [2] ... وهما يشربان الشاي (أو الشاهى كما يقولون فى الحجاز) والثلاثة : الرجل والرَّجلة وابن الليث يتناظرون [3] صامتين . وفى الصحيفة حديث عن أنس الوحش، فلم أتعجب إذ رأيت هذا المسكين (أعنى الشبل) يقاعد إنجليزيا ، ولم أنكر ، ولم أقل : إن ذلك البريطاني قد تطبع بطبع الأسد الوحشى حتى ائتلفا واصطحبا لأن الانجليزى إنسان من الاناسية والناس لا يحتاجون كما يعرف العارفون إلى تدرب على طبيعة من طبائع الضوارى والكواسر أو الجوارح [4] ، فالقرابات كما حققت علوم كثيرة فى هذا الزمان بين منتسبى القامات اليوم وبين [5] الماشيات على أربع والطائرات والزحافات واشجات قريبات ؛ ووراثة الأجداد البعيدة (بل القريبة) وهي التى يقال لها فى اللسان الأفرنجى L' atavisme ما زايلتهم فى حين ، وما ضاع والحمد لله ... منها شىء ؛ وفى كل يوم ألوف ألوف من الأدلة المثبتة المسكتة ، المخجلة المخزية . وابْل من شئت ممن تفخمهم تفخيماً وتبجلهم تبجيلاً وتحسبهم — وهم من البشر — ملائكة ، فإنه « يكاد أفضلهم رأياً يردّه عن فضل رأيه الرضا والسخط ، ويكاد أصلبهم عوداً تنكأه اللحظة ،

---

(١) طلة الرجل : امرأته ، قال :

وإني لمحتاج إلى موت طلتى ولكن قرين السوء باق معمر

(٢) اللبوة ساكنة الباء غير مهموزة : لغة فى اللبؤة بضم الباء وبالهمزة

(٣) يتناظرون : ينظر بعضهم بعضاً لا إنهم كانوا يتناظرون ويتباحثون فى كتابى (أصل الأنواع) لداروين و (تاريخ الخلق الطبيعى) لأرنست هيكل

(٤) (الضارى) من السباع ماضرى بالصيد ولهج بالفرائس (باز كاسر) وعقاب كاسر ، كسر الطائر ضم جناحه حتى ينقض يريد الوقوع (الجوارح) ذوات الصيد من السباع والطير

(٥) بين تكرر مع المظهر لا كما قال الحريرى فى (الدرة) وغيره والتكرير فى أقوال العرب كثير

وتستحيله الـــكلمة الواحدة [١] »

« والناس شجرة بَنِي [٢] »

« وجدت الناس إن فارضتهم فارضوك ، وإن تركتهم لم يتركوك ، وإن هربت منهم أدركوك [٣] »

« وجدت الناس أخبرُ تَقْلِهِ [٤] » :

يلقاك بالماء النمـــير الفتى وفي ضمير النفس نار تَقِدْ [٥]

يعطيك لفظاً ليّناً مسُّه ومثل حدّ السيف ما يعتقدْ

فالناس هم الناس ، و« هم — كما قال عالم أفرنجي — لم يزالوا حتى اليوم في الأفق (الدور) القردى الشبنزى أو الشنبنزي » إنهم بعدُ لفي هذا الأفق وإن مشوا في الأرض متغطرسين متكابرين متبجحين على إخوانهم الأقربين (ذوات الأذيال ...) بما سمّته لغاتهم تقدماً وارتقاء وإن أسمعك بعضهم — وأنت في القاهرة مقيماً — صوت الطبيبة في (نيويورك) وأراك صورة من تهوى في بلاد (النمسة) :

من في العراق يراك في طرسوسا [٦]

فالناس هم الناس :

فلا تلزمن النـاس غير طباعهم

فتتعب من طول العتاب ويتعبوا [٧]

أعود إلى أول كلامي فأقول : لا ، لا ، لم أقل : إن ذلك الانجليزي قد خلق بنحيزة ضارٍ فألف كلٌّ صاحبَه ؛ فالانسان — كما أثبت علم العلماء وأثبت عمله هو — سبعي بالطبع ، بل ازددت بعد تلاوة ذلك الحديث إيقاناً بأثر العادة والتعويد ، وإيماناً بأن التدرب يقدر أن يذلل الضاري ويقتاده — كان الله في عونه — إلى ملابسة انجليزي (أو غير انجليزي) ولا شيء في الدنيا أصعب من مخالطة الناس

* * *

وفي العربية أقوال كثيرة في العادة والمرون والتضرية والتدريب والتألف . وهذا خبر حسن بارع مجزئ عن كثير في هذا المعنى ، وهو في الشرح الكبير (للنهج) لابن أبي الحديد :

« إن لم تكن حليماً فتحلم ، فانه قل من تشبه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم) صحيحٌ في مناهج الحكمة ؛ لأن من تشبه بقوم وتكلف التخلق بأخلاقهم ، والتأدب بآدابهم ، واستمر على ذلك ومرن عليه الزمان الطويل ، اكتسب رياضة قوية وملكة تامة وصار ذلك التكلف كالطبع له ، وانتقل عن الخلق الأول . ألا ترى أن الأعرابي الجلف الجافي إذا دخل المدن والقرى وخالط أهلها ، وطال مكثه فيهم انتقل عن خلق الأعراب الذي نشأ عليه وتلطف طبعه ، وصار شبيهاً بساكني المدن ، وكالأجنبي عن الوبر . وهذا قد وجدناه في حيوانات أخرى غير البشر كالبازي والصقر والفهد التي تراض حتى تذل وتأنس ، وتترك طبعها القديم ، بل قد شاهدناه في الأسد وهو أبعد الحيوان من الانس . وذكر ابن الصابي (أبو إسحق) أن عضد الدولة بن بويه كانت له أسود يصطاد بها الصيد فتمسكه عليه حتى يدركه فيذكيه [١] ، وهذا من العجائب الطريفة »

(يتبع)

(١) من كلام النهج . (تستحيله) يريد تحيله ، ولم أجد استحال متعدياً في كلام عربي يوثق به ، ولا في كتب اللغة المعروفة

(٢) إنما جعلهم شجرة البني إشارة إلى أنهم ينبتون وينمون عليه (الميداني) والقول مثل

(٣) أي إن نلت من أعراضهم نالوا من عرضك ، وإن تركتهم فلم تنل منهم نالوا منك أيضاً لسوء دخلتهم ، وخبث طباعهم (الميداني) فارضه : جازاه (التاج) يفارض الناس يلاحيهم ويواقعهم (الأساس) والقول لأبي الدرداء

(٤) أبو الدرداء . قلاه يقليه قلى وقلاء (بالفتح) ومقلية وقلية (كرضية) يقلاه : أبغضه ، والهاء للسكت ، والمعنى وجدت الناس أي علمتهم مفولا فيهم هذا القول أي ما منهم أحد إلا وهو مسخوط الفعل عند الخبرة (الفائق للزمخشري)

(٥) أبو العلاء

(٦) المتنبي . وصدر البيت : (كذب المخبر عنك ، دونك وصفه)

(٧) عمارة اليمني

(١) يذكيه : يذبحه ، والذكي المذبوح ، في (الكشاف) : إلا ما ذكيتم : إلا ما أدركتم ذكاته (ذبحه) وهو يضطرب اضطراب المذبوح وتشخب أوداجه

العـــدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة